في سلسلة الدعوة التي كنا نتحدث عنها، وعن مفرداتهـا وأسـباب نجاحهـا، ومقدماتها ...

نجد من المناسبة ما يدعونا أن نتحدث عن نموذج من نماذج الـدعوة المحمديـة المعاصرة من خلال رجل بقي عمره يدعو إلى الله حتى لقي الرفيق الأعلى ومـا طويت صفحات حياته الدنيوية عن عمر يناهز الثانية والتسعين إلا وهو مستغرق في ذكر الله وتوحيده.

آخر أنفاسه وهو يخرج من الدنيا ويقول : (الله) .

إنه أستاذنا عبد الرحمن الشاغوري.

وحينما لا يتعرف المسلمون إلى نماذج الدعوة في كل زمان فـإن ذلـك ربمـا يدعوهم إلى توهم انحصار النموذج في زمن الجيل الأول من الأمة .

لكن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبر :

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

على الاستقامة ماضون، بواطنهم موحدة صفت من التعلق بالأغيار، وظواهرهم جرت على اتباع النبي المختار صلى الله عليه وسلم .

وجدت لزاماً أن أتحدث هذه الجمعة عن هذا الداعية الذي عرفته منذ ما يزيـد على الثلاثين سنة.

عرفته منذ أن كنت طفلاً في أواخر الستينيات، وصحبته ودخلت بيته وأخـذت عليه من العلم وأحببت أن أذكر شيئاً يسيراً لعلنا ننقل تلك الصـفات لشـبابنا ودعاتنا وعلمائنا في وقت نحتاج فيه إلى هذه النماذج التي اتصـلت أوصـافها بأوصاف أصل الأمة وسيدها محمد صلى الله عليه وسلم.

وكما قال الله سبحانه : (واذْكُرْ ربك) آل عمران(٤١) ؛ قال : (واذْكُرْ عَبْدنا) ص (١٧) .

فحينما تذكر ربك تقف أمام أوصاف الربوبية والعظمة، أمام الغنى ، أمام القوة ..

وحينما تذكر عبده نرى عند ذكرنا له فقر الإنسان إلى الله ، وحاجة الإنسان إلى الله، نرى كيف يستمد هذا الإنسان بفقره كل الغنى ، لكن من مـولاه لا مـن سواه ..

نرى كيف يستمد العلم وهو على بساط الجهالة والاعتراف بها ممن علم الإنسان ما لم يعلم .

(واذْكُرْ عَبْدنا) حتى ترى كيف يكون العبد .

(واذْكُرْ عَبْدنا) حتى تكون عبداً .

عبد الرحمن الشاغوري هذا رحمة الله عليه الذي توفي منذ أيام وكانـت جنـازة مشهودة تسمو فيها الأرواح وترتقي، خرج فيها العباد يملئون شوارع دمشـق، فما كنت تشعر في ذلك الموكب المهيب إلا بلقاء ملائكة السماء بالأرض.

عبد الرحمن الشاغوري هو أصلاً من آل عابدين ، حسيب نسيب شريف حسيني النسب ، ينتهي نسبه إلى سيدنا علي زين العابدين ابن الحسين رضي الله تعـالى عنهم جميعاً .

ولد في مدينة حمص عام ألف وتسعمائة واثني عشر .

توفي أبواه وهو صغير، فعاش يتيماً، ونشأ في رعاية أخيه الأكبر وكفالته؛ فانتقل به أخوه الأكبر من حمص إلى دمشق وعمره عشر سنوات وليس لـه أحـد في دمشق لا يؤويه ولا يحميه .

عاش مرارة اليتم والقلة، واضطر أن يعمل مستأجراً في سن مبكرة وكان لا يقدر على دفع أجرةٍ يدخل فيها إلى كُتابٍ يعلمه القراءة والكتابة، فاضطر إلى العمـل عند بعض صغار أرباب المال، في ذلك الوقت الذي كانت البطالة فيه والعطالـة

كبيرة، والمستغلون ما أكثرهم، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلمه، ولم يكن يملك من المال ما يكفي للكتاب.

فماذا يصنع ؟.

ساقه الحق فعمل صانعاً ومستأجراً في مكان وكان جدار ذلك المكان ملاصـقاً للكُتاب، فكان وهو يعمل يسمع ما في الكُتاب من وراء الجدار، فكان يسـمع الألف والباء والتاء ..

حفظ تلك الحروف حفظاً وحين يخرج الأطفال من الكتاب يسألهم ما صـورة الباء؟ ما صورة التاء ؟. ما صورة الألف ..؟

فكان يربط بين ما يسمعه وبين ما يرى صورته، يسمع من الكتاب دون أن يرى ويستعين بالطلبة عند انصرافهم حتى يتعلم صورة الباء والتاء، فانطبعت صـورة الحروف وألفاظها وأصواتها في مخيلته؛ فذهب إلى مصحف ذلك الرجل الـذي يعمل عنده، فرأى في المصحف حروفاً تشبه تلك التي سمعها وحفظها فبدأ يربط بين الحروف حتى ربط بين حروف البسملة وحروف الحمدلة وحروف فاتحـة الكتاب وما هي إلا ثمانية أشهر حتى صار يقرأ القرآن كأحسن ما يقرأ .

(علم الْإِنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) العلق (٥).

كن فقيراً إلى الله تجد غناه يحيط بك ، ارتِمِ في أعتاب عبديتك واعترف بها يتولاك مولاك حتى لو لم يكن من حولك عيال ولا مال، لأن رب العيـال ومنـزل الأرزاق والأموال قد تكفل بخلقه.

حدثني شخص من محافظة ادلب قال لي : كان عندنا حجارة سوداء كبيرة كانوا يضعونها عند طهو الطعام على القدر حتى تنضج الأغذية في القدر، قال : ورثت تلك الحجارة الكبيرة الصماء عن أبي وورثها أبي عن جدي ، وكانت توضع فوق القدر والقدر يغلي، ومرة وهي في يدي وقعت على الأرض فانكسرت فرأيـت فيها عجباً ! رأيت في أعماقها دودة وقد أنبت الله لها حشيشة خضراء .

الكثير منا لا يعرف الله ...
وبعد أن قرأ القرآن أراد أن يتعلم فنون الخط ؛ فكان يقف أمام اللافتة، وكلما مر بلافتة في الطرقات كُتِب عليها اسم أو مهنةٌ يأخذ الدفتر فيقلد ذلك الخط المكتوب على اللافتة ثم يصل إلى البيت وقد جمع مما كتب كثيراً فيعيد رسمه وتحليله وتركيبه.
ثم وجد أنه لا بد من الأستاذ والمعلم فانتقل إلى شيخٍ يعلمه وقد أصبح في سن الخامسة عشرة ..
انطلق إلى أستاذ دمشقي عرف بالفضل وكان يعلم الطلبة لوجه الله ..
انطلق ليبني أول حجر في بناء العلم ليقَوم ما تعلمه من اللغة ، ومن القراءة، فكان أولَ شيخ دمشق تولى رعايته شيخ اسمه الشيخ حسني بكري البغال، وهو أول من تعهده بالعلم، لكنه كان في نهاره عاملاً قد أتقن صناعة الغزل والنسيج، فكان يذهب إلى أستاذه حين ينتهي من عمله.
لم يدرس في مدرسة شرعية ليخرج بعد ذلك موظفاً ويعين في مسجد ويتقاضى راتباً لكنه مارس الحياة، ودخل الواقع، وأتقن العمل في الغزل والنسيج إلى أن صار مرجعاً وبارعاً فيه .
لكن ذلك العقل المتنور الذي يدخل إلى المسجد ليتعلم فيه العلوم كان يحمله معه إلى ساحة الغزل والنسيج .
ومن ملاحظاته الإنسانية والإسلامية رأى أن أرباب العمل يستغلون العمال، وهكذا شأن الإنسان لا يستطيع أن يتجرد عن ملاحظاته الإنسانية، وكان أرباب العمل يستغلون العمال أيما استغلال لا سيما أن الوقت كان وقت بطالة وعطالة.
دافع دفاعاً شديداً عن حقوق العمال وطالب بسن القوانين التي تحفظ لهم حقوقهم حتى صار وجهاً بارزاً كبيراً في دفاعه عن حقوق العمال في وقت كانت الشيوعية فيه تستقطب العمال وتناديهم إلى الشيوعية.

وقال لي الشيخ يوماً من الأيام استطعنا أن نوقف مد الشـيوعية إلى العمـال في سورية ، لأننا دافعنا بالإسلام عن حقوق العمال .

انتخب بعد ذلك رئيساً لاتحاد عمال النسيج في دمشق، ثم انتخب رئيساً لاتحـاد نقابات العمال في سورية، وأصبح عضواً في اتحاد العمال العرب، وحينما وصل إلى سن الستين ولم تكن أنظمة النقابات تسمح بمتابعة عمل إداري بعد الستين، طلب منه الوزير وقتها بإلحاح شديد أن يمدد خدمته لأن البلاد بحاجة إليه.

وأيام احتلال فرنسا وهو في عمله وتعلمه كان في صدارة من يشارك في الثـورة السورية وهو دون سن العشرين ، وكان يقارع ذلك المحتل بالحجارة وبالسلاح، وينظم الشعر ويلهب المشاعر ويستثير نفوس الناس حتى يطـردوا المحتـل عـن الأرض.

حضر مجالس شيوخ العلم في زمانه وأخذ عليهم ، وياما أُحْيلا تلك المصادر التي كان طالب العلم يأخذ منها علمه، فيفوق علم الجامعات بكثير ، فحضر مجالس (المحدث الأكبر) : الشيخ محمد بدر الدين الحسني محدث الديار الشامية الأكبر فتلقى عليه الحديث النبوي الشريف وأصوله .

وتلقى الفقه عن الشيخ : علي الدقر شيخ فقهاء دمشق والشيخ صالح العقاد .

وقرأ شرح الحكم العطائية على الشيخ أمين سويد .

وقرأ من البخاري على الشيخ توفيق الأيوبي وأتم قراءته بعد وفاة الشيخ الأيـوبي على الشيخ محمد المكي الكتاني رحمة الله عليهم جميعاً .

وقرأ على الشيخ عبد القادر الدكالي في علم العقيدة .

وقرأ علوم الفرائض والمواريث على الشيخ أبي الخير الميداني .

وأتم علوم العربية على الشيخ محمد بركات، والشيخ علي سليق، والشيخ إسماعيل الطيبي ، والشيخ أحمد الدقر ، والشيخ لطفي الفيومي .

وقرأ التفسير على أستاذه الشيخ : حسني البغال .

ثم قاده ذلك الشيخ الأول إلى الشيخ الأخير، ومن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فقاده شيخه حسني البغال الأول إلى شيخه الأخير محمد الهاشمي التلمساني، المربي الكبير، الذي لم يكن في البلاد أحد أعلم منه ولا أرق منه، ولا أصفى ولا ألطف في الأذواق والأخلاق منه، فأخذ عنه التوحيد والتربية والأخلاق والأذواق.. إلى أن صار يقرأ العبارة في درس شيخه، فكان الشيخ الهاشمي يقرر شرحاً وكـان الشيخ عبد الرحمن يقرأ العبارة، حتى ظن الناس لكثرة ما رأوه ظلاً للشيخ الهاشمي التلمساني رحمة الله عليهما كانوا يظنون أنه ولده .

عمل خطيباً ومدرساً دينيا في مساجد دمشق بعد أن أصبح موسوعة في العلـم والأدب والتربية والأذواق، وكان أينما حل يجذب النـاس بلطفـه وبأخلاقـه وبأحواله وبحسن مؤانسته ومازحته، وما رآه أحد إلا أحبـه، والمـؤمن آلـف مألوف.

وإذا رجعنا إلى ديوان شعره الذي لم يترك من الكتب غيره ، وكثير من العبـاقرة الكمل كان إخوانهم كتباً لهم .

سئل أبو الحسن الشاذلي رحمة الله عليه ماذا كتب من الكتب ؟

فقال : (إخواني كتبي) .

فكان من إخوانه ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم العطائية التي بقيـت حكمه إلى آخر الزمان مصدراً للعلوم والمعرفة .

لكن شيخنا الشاغوري ترك شعراً كثيراً ، جمع في ديوان ، من تأمل هذا الديوان يجد فيه ذلك التنوع العجيب الذي يمثل الإنسان في تنوعاته الروحيـة والذوقيـة والأدبية و الاجتماعية والجهادية والعلمية فلم يكن غرض من أغراض الشـعر إلا وكان يسلك مسلكه وكان يوجه من خلاله شعره .

عالم كهذا قد لا تتوقع أن تقرأ في شعره قصيدة عن الأم، ربما تتصور أنه يتحدث في قصيدة تحكي تاريخاً في السيرة، أو تدعو إلى تحسين في السـلوك والمعاملـة ، لكنك تقرأ على سبيل المثال في ديوانه هذه القصيدة في الأم يقول فيها :

بكِ الإلـه لهـذا الكـون يـبـديـنا ... يا أم مـع ذوقـكِ الآلام والهُـونـا
في الأشـهر التسـع حملٌ كلـه سـقم ... تلفينـه بعـد وضـع الحمـل نِسـرينا
كم تنجبـين كـريـمـاً كـفـه هطِـلٌ ... و تخـرجين فـتى يهـوى الـمـياديـنا
يـا أم كـم تسـهرين اللـيلَ مـن أرقٍ ... و الـدر مـن ثـديكِ الهـامي يغـذينا
و أدمـع مـنكِ طـولَ الليـل سـائلةٌ ... إن شـاكنا الشـوك في إحـدى أيادينـا
هـذي يمينك قد كانت وسـادتـنـا ... و تلك يسـراكِ للنهـديـن تدنـينا
إن جـاءنـا الخير طـبعاً تفرحـين لـنا ... والبِشـر مـن ثغـركِ الضـحاكِ يحيينـا
أو نابنا الشر تلفين الضـحى عَـلَـسـاً ... فأنـتِ أكـرم مـن أضـحى يواسـينا
قد حثنا الشـرع أن نبغـي الرضـا أبـداً ... يـا أم مـنك عسـى مـولاكِ يرضـينا
بكِ الهدى و المـنى و الخيـر أجمـعـه ... فإن عـققـنا ففـي ويـلٍ مهاويـنا

قصيدة تعالج صلة الولد بأمه معالجة لا تجدها عند أكابر من كتب في الشعر لأنها معاناة إنسانية لامس من خلالها حقيقة الإنسان .

أما القصيدة الثانية التي اخترت أن أنقلها إليكم وأختم بها فهي القصيدة التي دعا بها العرب إلى الوحدة، وكأنني أسمعه في هذا الوقت يدعو أمتنا العربية والإسلامية إليها يقول فيها :

حطمِ القيـد و اتـحـدْ لا تـبال ... وحـدةُ العـربِ غـايـةُ الآمـال
في اجتمـاعٍ وفي اقتصـادٍ وفي كُـل م مجالٍ في السـلْمِ أو في النضـال
سيما وحـدةُ الثـقافـةِ مـنهـا ... يتـجلّى للـعُـربِ كل كـمـال
نصـطفيها مـن تالـدِ الـدِ عـن م أسـلافِنا قـادةِ الـوغى الأبطـال

فـبهذا يـنهـارُ كـل عـــدوٍ جاثـمٍ فـي ربوعِـنـا باحـتـلال
أيها الكادحونَ في وطـن الضـــــا دِ فهـيا سـيراً لأوجِ الكـمال
أنتمُ للأوطان ركـــنُ ارتكـــازٍ وضمانٌ من عـاديـاتِ اللـيـالي
حـققـوا باتحادِكم كل شـــيءٍ جاءَ في نهجِكم علـى الإجمـــال
وأزيلـوا تلك الحواجـز حـتـــى يتســنى للـفـردِ أي اتـصـال
إنهــا مــن صــنيعةِ الغــربِ حقــاً حين جاسوا في الـدارِ كـل خـلال
فأميـطـوا أذاهـمُ عـن ربـوعٍ طاهراتٍ من رجس كل ضـلال
لم يزل عـندنا لهم مـن بـقـايـا للدعاياتِ في رجـوعٍ احتـلال
كافحوا كل من تجـرثَم منـهم و أتـمـــوا الجـلاءَ باسـتـئصال
إنما الاسـتعمارُ أحـدثَ فـيـنا في صفوفٍ لنـا ثغـــور انفصـال
يا نضـالَ الأسـودِ يـا شـرف الـد م فحطـمْ مـــا ثم مـــن أغـلال
يا ديار الرشـيدِ يـا كعبـةَ العلـمِ م عـــرين الأســودِ والأشـــبال
لا تميلـوا نحـو القطـيـعـةِ إنـا قـد جـرعـنا مـرارةَ الانـفصـال
يا بني الضادِ سُـوفةً(١) و ملـيكـاً و رئيسـاً هلاّ سـمعـتمْ مـقـالي
وحـدوا صفكم ومُجـوا نفـوسـاً و اجعلوا الحـق فوق كل مـنـال
ثـم زُجـوا أوطانكم باتـحـادٍ بعـده وحـدةٌ كمـثل الجـبـال

وهكذا ... نرى نموذجاً من النماذج التي اتصلت في العلم والعمـل والسـلوك والتواضع والأخلاق واللطف والمؤانسة والدعوة ما ينبغي لنا أن نجعله أنموذجـاً ومثالاً يقتدى به ويحتذى به .

فالخير كما يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم :

(الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة) .

اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً

اللهم إنا نسألك أن تجعل من سير الصالحين نفعاً لقلوبنا ولحياتنـا ولسـلوكنا ، نسألك يا مولانا أن ترحمهم وأن تجمعهم ، وأن تجمع هذا الأستاذ الفقيد بحبيبـه وأسوته ومصطفاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنان الخلد
نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلحقنا جميعاً بمنهجهم ومسلكهم ، إنا على ما يشاء قدير ، أقول هذا القول واستغفر الله .